الحلقة (٩)

- قوله: "لم يزل متصفا بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل"
- الصفات هل هي زائدة على الذات
- الاسم غير المسمى
- الرد على الجهمية والمعتزلة باختصار في الصفات
- بحث التسلسل

أولاً: اختلف الناس في اتصاف الباري جل وعلا في صفاته، هل هو متصف بها بعد ظهور آثارها وهذه مسألة مهمة، وأسماء الرب تعالى سُمي بها بعد ظهور آثارها أم قبل ذلك؟ هذه المسألة ومسألة التسلسل من أصعب ما سيواجهكم في مقرر التوحيد، فيجب الانتباه هنا في الشرح وأنا أمشي نقطة نقطة حتى يتبين هذا الأمر ويقرب إلى أذهانكم، لأنها من مسائل الكلاميات وليست من صلب عقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما خاض فيها أهل السنة والجماعة عندما خاض فيها المبتدعة، وأراد أهل السنة أن يردوا عليهم ويبينوا الحق في ذلك.

← أقول المسألة اختلاف الناس في اتصاف الباري جل وعلا بصفاته، هل هو متصف بها بعد ظهور آثارها؟ وأسماؤه سبحانه وتعالى هل سُمي بها بعد ظهور آثارها أم قبل ذلك؟

❖ **الناس في ذلك مذاهب:**

- المذهب الأول: فهو مذهب **الجهمية والمعتزلة** ومن نحا نحوهم فهم يقولون: أنه عز وجل لم يصل له صفات ولا أسماء إلا بعد أن ظهرت آثارها، فلما خلق صارت له صفة الخلق، وصار من أسمائه الخالق، وذلك على الأصل الذي عندهم وهو أن أسماء الله عز وجل مخلوقة، فلما خلق سبحانه سماه الناس الخالق، وخلق له اسم وهو الخالق تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا، فعندهم أن الزمان لما ابتدأ فيه الخلق أو الرزق أو الإنشاء صار بعده له اسم الخالق، وقبل ذلك لم يكن له هذا الاسم ولم تكن له هذه الصفات، فقبل أن يكون هناك أي سامع لكلامه فليس هو سبحانه متكلماً فلما خلق سامعاً لكلامه خلق كلاماً ـ عند المعتزلة و الجهمية على معتقدهم بالقول بخلق القرآن ـ فأسمعهم إياه فصار له اسم المتكلم أو صفة الكلام لما خلق من يسمع كلامه، وكذلك صفة الرحمة يؤولونها أو أنواع النعم والمنعم والمحيي كل هذه لا تطلق على الله عندهم إلا بعد أن وُجد الفعل منه على الأصل الذي ذكر عنهم، أن الأسماء عندهم والصفات مخلوقة، تعالى الله عن هذا الضلال علواً كبيرا.
- المذهب الثاني: هو مذهب الأشاعرة والماتريدية ومذهب طوائف أهل الكلام في أن الرب جل وعلا كان متصفاً بالصفات وله الأسماء، ولكن لم تظهر آثار صفاته ولا آثار أسمائه بل كان زمنا طويلا معطلا عن الأفعال تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

يقول أصحاب هذا المذهب الثاني له صفة الخلق وليس ثمة ما يخلقه، وله صفة الفعل ولم يفعل شيئا،

وله صفة الإرادة وأراد أشياء كونية مؤجلة غير منجزة وهكذا.. وهذا مذهب باطل، فمن أسمائه عند هؤلاء الخالق ولكنه لم يخلق، ومن أسمائه عندهم وصفاته الكلام ولكنه لم يتكلم، ومن صفاته الرحمة بمعنى إرادة الأنعام وليس ثمة مُنعَم عليه، ومن أسمائه المحيي وليس ثمة من أحيا، ومن أسمائه الباري وليس ثمة من برأ، وهكذا حتى خلق الله عز وجل هذا الخلق المنظور الذي تراه من الأرض والسماء وقص علينا في كتابه ثم بعد ذلك ظهرت آثار أسمائه وصفاته، تعالى الله عن هذا البهتان العظيم علوا كبيرا..

فعند أصحاب المذهب الثاني أن الأسماء والصفات متعلقة بهذا العالم المنظور أو المعلوم دون غيره من العوالم التي سبقته، وقالوا هذا القول وهذه الشنيعة فرارا من قول الفلاسفة الذين زعموا أن هذا العالم قديم وأن المخلوقات قديمة متناهية أو دائمة من جهة الأولية ومن جهة القدم مع الرب، إذا هم فروا من قول الفلاسفة فوقعوا في الضلال، هذا بيان المذهب الثاني في هذه المسألة.

- المذهب الثالث: وهو المذهب الحق إن شاء الله هو **مذهب أهل الحديث والأثر وأهل السنة أعني عامة أهل السنة** وهو أن الرب عز وجل أولٌ بصفاته، كما عبر الماتن هنا يقول : "كان بصفاته" وأن صفات الرب عز وجل لابد أن تظهر آثارها لأنه سبحانه وتعالى فعّال لما يريد، والرب عز وجل له صفات الكمال المطلق، ومن أنواع الكمال المطلق أن يكون ما أراد سبحانه، فما أراده كوناً لابد أن يكون وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه سبحانه يجوز أن يكون خلق أنواعا من المخلوقات وعوالم أخرى غير هذا العالم، ظهرت فيها آثار صفاته وآثار أسمائه سبحانه وتعالى، فجنس مخلوقات الله عز وجل أعم من أن تكون هذه المخلوقات الموجودة الآن، فلا بد أن يكون ثَم مخلوقات أوجدها سبحانه وأفناها ظهرت فيها آثار أسمائه وآثار صفاته، فإن أسماء الرب وصفاته لابد أن يكون لها أثرها لأنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد، فما أراده الله سبحانه وتعالى فعله ووصف نفسه بهذه الصفة على صيغة المبالغة الدالة على الكمال بقوله {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد}. هذا تسلسل وسيأتي بحث التسلسل لكن يعني في الأولية والآخرية فهو سبحانه وتعالى كما كان بصفاته أزلياً يقول الطحاوي **"وكما كان بصفاته أزلياً لا يزال عليها أبدياً"** وهذا منهم -يعني من أهل الحديث والأثر و السنة- هذا القول منهم لأجل إثبات الكمال للرب سبحانه وتعالى.

- **القول الأول** وهو قول المعتزلة والجهمية وفيه تعطيل للرب عن أسمائه وصفاته، يعني أن الله عز وجل كان بلا صفات وبلا أسماء، تعالى الله عن هذا الكفر، وأنه لما فعل وجدت صفات الرب عز وجل، وهذا نسبة النقص لله عزو جل، لأن الصفات هي عنوان الكمال الله سبحانه له الكمال في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.
- **المذهب الثاني** مذهب الأشاعرة والماتريدية ومن نحى نحوهم فهم أيضاً وصفوا الرب سبحانه وتعالى بالنقص كيف ذلك؟ لأن أولئك يزعمون أنه متصف ولا أثر للصفة، له اسم ولا أثر للاسم.

المذهب الأول أنكروا الأسماء والصفات وأن الله سبحانه ليس له صفات إلا بعد أن ظهرت آثارها، المذهب الثاني أن الله متصف بالأسماء والصفات ولكنه معطل عنها حتى ظهرت آثارها.

▪ **أما المذهب الثالث**: وهو مذهب أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات وله أسماء سبحانه وتعالى وآثارها ظاهرة، لم يتعطل عن آثار أسمائه أو آثار صفاته سبحانه وتعالى، فلا بد أن تظهر آثارها لأن الله {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد}. أصحاب المذهب الثاني قالوا قولهم هذا لأنهم تعلقوا بالعالم المنظور والعالم المنظور المكون من السماء والأرض وخلقها ولم يعلموا بأن هناك عالماً آخراً إنما نظروا نظرة قاصرة.

فوجود هذا العالم وإن كانت مدته وعمره طويل لكنه بالنسبة إلى الزمن المطلق قريب، لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) فالتقدير كان قبل أن يخلق هذه الخلائق مع أن له عرش وكان على الماء، وهي مدة محدودة، لا يحده زمان سبحانه وتعالى فهو أول سبحانه بلا انتهاء وبلا انقطاع، الله سبحانه ليس قبله شيء، وهذا إقرار لأنه من جهة الأولية يتناهى الزمان في إدراك المخلوق وتنتقل من الزمان المنسوب إلى الزمان المطلق، وهذا تتقاصر عقولنا عن إدراكه، أما العالم المنظور فهو محدث، حد لنا النبي صلى الله عليه وسلم متى حدث، وبين النبي صلى الله عليه وسلم لنا أن الله قدر المقادير قبل أن يخلق هذا العالم أو السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ولذلك قول الأشاعرة والماتريدية بأنه متصف بصفات وله الأسماء ولكن لم تظهر آثارها ولم يفعل شيئا إلا بعد أن أَوْجد هذا العالم، نقول معناه أن ثمة زمان مطلقا طويلا جدا ولم يكن الرب عز وجل فاعلا، ولم يكن لصفاته أثر، ولم يكن لأسمائه أثر في مربوباته سبحانه وتعالى، وهذا من الباطل، ولابد أن الله عز وجل له سبحانه من يعبده من خلقه، ولابد أن يكون له عز وجل مخلوقات لأنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد وهذه صفة مبالغة مطلقة في الزمن كله، لأن ما اسم موصول والأسماء الموصولة تعم ما كان في حيز صلتها.

بقي أن يقال أن قولهم "أراد ولكن إرادته كانت معلقة غير منجزة" يعني أنه أراد عندما كان معطلا تعالى الله عن ذلك، ولم يكن مريدا إلا بعد أن ظهرت آثار صفاته سبحانه، وهذا تحكم في الله سبحانه وتعالى لأن هذا مما لا دليل عليه إلا الفرار من قول الفلاسفة ومن نحى نحوهم، القائلين بقدم العالم وعدم تناهي ذلك، **هذا الإلزام من أصحاب المذهب الثاني لا يلزم أهل السنة والجماعة والأثر، لأننا نقول أن العوالم التي سبقت هذا العالم كثيرة وليس واحداً، بل متعددة لا نعلمها، الله سبحانه وتعالى أعلم بها، وهذا ما قيل أنه يسمى بقدم جنس المخلوقات أو ما يسمى بالقدم النوعي للمخلوقات، وهذا من المسائل الكبار.**

← تكلم الشارح عن مسألة: هل الصفة زائدة عن الذات أم لا ؟

وهذه من المسائل التي ترد كثيراً عند أهل الكلام، الماتن وهو الطحاوي يقول : **"مازال بصفاته قديماً**

قبل خلقه" مازال بصفاته أي لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً.

هذه لفظة مجملة لفظ الغير يعني هل الصفة غير الذات أم لا ؟ أي أنها فيها إجمال لابد أن نتوقف عندها ونستفصل ما المراد؟ فإن كان المراد حقاً أثبتناه وإن كان المراد بها باطلاً نفيناه، ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ولا أنه ليس غيره، لأن إطلاق الإثبات قد يُشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو هو، إذا كان لفظ الغير فيه إجمال فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل، فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بذاتها أو قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح، نقول لهم ما تريدون بأن الصفة غير الذات، إن كنتم تريدون بأن هناك ذاتاً مجردة ليس لها صفات مستقلة فهذا غير صحيح، وإن كنتم تريدون بأن الصفات زائدة عن الذات التي يُفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفة، وليس في الوجود ذات ليس لها صفة، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة، لذلك قال المؤلف هنا "**مازال بصفاته**" ولم يقل مازال وصفاته، لأن بصفاته الباء للمصاحبة، يعني أن الله صاحب الرحمة والقوة، فالباء للمصاحبة والواو للمغايرة لأنها من حروف العطف، فهنا نقول الذهن لا يفرض ذاتا ووجودا لها مستقلا من غير صفات ولا يتصور هذا، بل لا ينفك أحدهما عن الآخر في الخارج.

➔ومسألة: هل الاسم عين المسمى أم غيره ؟

يقولون الاسم عين المسمى أو غيره، ما موقف أهل السنة من هذه المقولة، وطالما غلِط كثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه، **فالاسم** يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه تارة أخرى، وهذا هو الجواب.

فإذا قلت سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحمن من أسماء الله تعالى، فالاسم هاهنا للمسمى لا عين المسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال فإن أريد بالمغايرة فإن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه وتعالى كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله سبحانه وتعالى.

الماتن أبو جعفر الطحاوي رحمه الله هنا قال "**ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه**" بصفاته هنا انتبهوا إلى هذه اللفظة بصفاته قلنا الباء للمصاحبة، إلى آخر كلامه في الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة فإنهم قالوا إن الله تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكنا بعد أن كان ممتنعا، وأنه قلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، وعلى ابن كُلاب الأشعري ومن وافقهم فإنهم قالوا إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعا، على ما ذكرنا

في تقسيم أصحاب المذاهب الثلاثة، وقولهم المذهب الثاني: أنه سبحانه وتعالى معطل عن أسمائه وصفاته حتى ظهرت آثارها.